مولانا الإمام

ممر طويل مُظلم، وضوء خافت يُصارع لاختراق سواده الحالك، صمت قاتل مُطبق، ودقات بعيدة تجاهد لاقتحام هذا الجمود، رؤوس من خلف أبواب الزنازين مشرئبة، لا تري منها إلا العيون، لا تسمع لهم صوتاً، فقط في الظلام يحملقون، في تلك الغرفة البعيدة جلس ذلك الأشعث، يرتدي زى إعدامه الأحمر، جالس القرفصاء دافنا رأسه بين ركبتين أحاطت بهما ذراعية، ينصت إلي تلك الدقات ساخرا، هلموا فأنا أنتظر لقاء مولانا وانتم لا تعلمون.

"حذيفة القُرشي".. هكذا عُرف بين اقرنائه، أسمه في البطاقة فولان الفولاني، إنسان بائس، عاش حياته مُنقاد لأفكار وجد فيها ضالته، مارس معها لأول مرة ما كان يعتقدُ إنها سطوه القوة، رغم صغر سنه الذي لم يتجاوز الثلاثون ربيعا، يظن من يراه أنه كهل عجوز، أخفي شاربه ولحيته معالم وجهه الشاحب، حفر القهر تجاويف عينيه الغائرتين، خط الفقر شروخ دامية حول فمه الواسع، انتحي ركناً أشد ظُلمة، علة يختبئ من عدو مجهول، يسترق السمع لخطوات أقدام منتظمة، يعلو صوتها فتزداد اقترابا، انتفض فجأة فزعاً فقد توقفت تلك الأقدام علي بابه.

عاد الصمت يفرض سيطرته من جديد، توارت عيون الرؤوس المشرئبة خلف أبواب الزنازين، ملئوا صدورهم هواءً، كانوا قد حرموا رئاتهم ظناً أن يومهم قريب، تهاوت أجسادهم أرضاً، فأصحاب الأقدام عنهم وقفت بعيد، وداخل زنزانة "القُرشي" رفع "حذيفة" رأساً يعلم أنها ستتدلى بعد قليل، رسم علي وجهة ابتسامة غامضة مردداً، هلموا إن شوقي للإمام يزيد، هوي الباب علي مصراعيه مُلبياً، هيا للقاؤه حظ سعيد، فانقضوا عليه يحملونه فأظهر مرحاً قائلاً هل من مزيد.

كاد لا يخطو "القُرشي" خطوة واحدة علي قدميه، راح الجنود يجرونه جراً نحو نهاية الممر، يسبقهم ضابط يقودهم إلي تلك الغرفة، بين الفينة والأخرى يلقي "القُرشي" نظرة علي حذائه، ود لو عاد به إلي زنزانته، تعجب كيف لا يجرؤ علي السير منتصباً، فلا جُرم ارتكب ولا هو بإرهابي، من خلف النوافذ أطلت رؤوس السجناء مهللة، هذا فتي يُزف إلي عُرسه، فرماهم بعين ساخرة، خسئتم ورب الكعبة ستندمون.

توقف ركب "القُرشي" أمام غرفة الإعدام صامتاً، فرفع "حذيفة" رأسه إلي الجميع باسماً، لمح في الغرفة إناسٌ يصطفون لاستقباله، ألقي إليهم تحية كأنه زعيماً، هاله أن رأي حبلاً متدلياً، فجحظت عينيه التفت حلقته حول جيده اتساعاً، تذكر الإمام

ولقاؤه فتمتم مستغفراً عذرا سيدي، لم أجد في الدنيا متاعاً، راح عشماوي يوثق وثاقه، وتلي عليه شيخهم قرآناً، وراح كبيرهم يتلوا حُكمه، فردد لبيك سيدي، إني أتٌ، أجابه جلاده بضربة من يده، فهوي جسده مودعاً روحه، وقبل أن يصعد إلي السماء ألقي عليهم نظر ساخرة، سأترككم للضلال تنعمون فإني راحل للإمام.

●●●

انطلقت روح "القُرشي" إلي السماء مرحاً، فقد حان وقت اللقاء، غادرت الأرض البائسة لتنعم وسط الأنهار والجنان، ترجو أن يسعد بها الإمام، ويكافئها بسبعون ألف جارية، لاح في السماء باباً فرفرف بجناحيه طرباً ها قد حان وقت النعيم، فسعي إليه صائحا لبيك إمامي وعدت فأوفيت، اقترب "القُرشي" من الباب الذي بدت معالمه في كبد السماء، وعلي بابها يقف الملاك الحارث يشير إليه ملوحاً، فانطلق مسرعاً يمني النفس بالحظ السعيد.

رويداً رويداً يقترب "القُرشي" من باب السماء، شعوراً بارتفاع درجات الحرارة انتابه، إحساسٌ باختناق رئتيه اجتاح كيانه، تعجب كونه روحاً تحس بتلك التأثيرات، فجأة تسلل القلق إلي نفسه، اضطرب قلبه رعباً، جحظت عيناه هلعاً، فما يراه ليس ما وعد به الإمام، لم تكن الجنة ولكنها أشبه بالجحيم، ومن يقف علي بابها شيطان رجيم، يداه الممدودتان، عيناه المشتعلتان، أنياب فكه

الهائلة، أنبأته بذلك، أما خلف الباب فأمواج من النيران المشتعلة، فالتفت محاولاً الفرار من شيطان يطلق ضحكاته، ومن يد نارية عملاقة تنطلق خلفه، انقضت عليه لتنتزعه انتزاعا وتلقي به في غياهب الجحيم المُحرقة.

داخل الجحيم وجد "القُرشي" نفسه يندفع كالبرق صوب بقعة هي الأشد اشتعالا، جحيم لا يمكن وصفه، نار سوداء مظلمة لا ينطفئ لهيبها ولا جمرها، حرها شديد، قعرها بعيد، حليها حديد، شرابها الحميم والصديد، ثيابها مقطعات النيران، ولها سبعه من الأبواب، كل باب أشد حرا من الذي يليه، هنا وهناك أجساد الظالمين مشتعلة، ونسوة ورجال سلسلهم زبانية جهنم مع شياطينهم، لم يبالي "القُرشي" بهم، فما يعانيه من عذاب لا يُطاق، فقد ذاب لحم جسده وعظامه ألف مرة في الثانية الواحدة، كانت في كل مرة كالدهر من شدة الألم.

كأنك يا هذا ارتكبت فعل أثيم.. فجاءوا بك إلي أحر مواقع الجحيم" .. خُيل لـ"القُرشي" أن أحدهم يتحدث إليه، انتبه إلي أنه يجلس علي مقعد قُد من نار داخل غرفة واسعة، إلي جواره عدد من المقاعد لا يُعد ولا يُحصي، يجلس عليها رجال ونساء، لم يتبين وجوههم، فقط هياكل عظمية مشتعلة، تارة سوداء، وتارة حمراء، بين الفينة والأخرى تكتسي العظام لحم، وتعود إليهم هيئتهم

البشرية، فأشار إليه أحدهم قائلاً، ماذا فعلت، فأجابه بصوت باكٍ، لم أفعل سوي ما أمرني به الإمام، فأطلق صاحب الصوت ضحكة ملتاعة، أوضحك عليك ذاك الإمام، مشيت خلفه مُنقاداً ولم تتعلم من سير الأولين، من جاء بي يا فتي إماماً كالذي جاء بك إلي الجحيم.

أشجع الأصمعي".. ذاك أسمي يا "قُرشي"، نعتوني بـ"الأصمعي" لأن سيفي كان بتاراً للرقاب، باسم الإمام سلبت أجساد العباد رؤوسهم، باسم الإله جعلته يقودني إلي هنا، عشت سنيناً أنتمي لجماعة الحشاشين، ناصبت الأيوبي صلاح الدين عداءاً لم أكنه للصليبيين، لم أري خطراً علي الدولة الإسلامية من المسلمين أنفسهم، فعملت سيفي في رقابهم وتركت المغول ينعمون، ضحكوا علي بجنتهم المزعومة بحور العيون، وها أنا اليوم أتجرع كأس ما فعلته ظناً إنه باسم الرسول.

●●●

"سيدي المحقق العام أحضرنا المذنبون".. رفع المُحقق "توماس دي توركيمادا" الجالس علي عرشه رأسه إلي مساعده "برنارد كازاس"، لم يتفوه بكلمة واحدة، فقط أشار إليه بالانتظار، التفت إلي أوراقه وملفاته وراح يخط بيده القرار، وقف "كازاس" ملتزماً الصمت، فقد كان رغم قرابته يخشاه، يعلم أن ضرب عنقه

عقاب مخالفة أمره، أو في غرف التعذيب سيُلقي به مع المُذنبين والهراطقة.

وقف "كازاس" يتفرس ملامح "توركيمادا" دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ضخم الجثة أبيض البشرة، عريض المنكبين قوي الشكيمة، رغم تخطيه الستون، صنع الشعر من رأسه الأقرع طوقاً كأنه تاج المُلك، وجنتان منتفختان، وعينان ضيقتان كعيني صقر، وأنف طويل معقوف، وجبهة عريضة تنبئ عن قسوة صاحبها، يرتدي زى الرهبان الأسود، أحاط عنقه صليب ذهبي.

تنحنح "كازاس" فقد مل الإنتظار، نحي "توركيمادا" أوراقه جانباً، الأن محاكمة الأشرار، التقط معطفه وعصاته وكتابه المقدس، وأشار لمساعده ليقوده إلي قبو الكنيس، وفي الأسفل توجه إلي منصة القضاة، علي يمينه ويساره جلسا مساعديه يتلون عليه أسماء المُذنبين، في حين انشغل جنوده في إخراجهم من الزنازين، شبه عراه مُكبلين، لم يفرقوا بين الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، اصطفوا جميعاً لينصتوا إلي حكم القاضي فيما أجرموه.

"باسم راعيا الصليب إيزابيلا وفردناند.. أحكم عليكم أنا الراهب توركيمادا حامل سيف الرب.. بحرق وذبح الهراطقة من الرجال، أما النساء فستُنزع أثدائهم ويُلقي بهم داخل تابوت

العـذراء، والعجائـز سيجلسـون علـي الكرسـي الخـازوق، والأطفـال خذوهـم لعجلـة كاثريـن، اطحنـوا عظامهـم والقوهـا للطيـور.. يـا جنـود الـرب وحمـاة الصليـب.. لا جـدال ولا نقـاش.. نفـذوا حكـم الـرب وكفـي.. اغرسـوا في أحشـاء الرجل ودفعوه بقـدر مـا يمكـن أن يخـرق"

وقـف "كازاس" خلـف سـيده يـردد مـا يقـول، نفـذوا إرادة الـرب، طهـروا أرواحهـم بالدمـاء، لا تأخذنكـم بهـم شـفقة، أقتلـوا باسـم الإله، كالذئـاب الضاريـة انقـض الجنـود علـي السـجناء البؤسـاء، انتزعـت مخالبهـم الأطفـال مـن أحضـان أمهاتهـم غيـر عابئـين بصراخهـم، سـاقوا الرجـال إلـي المحـارق وألهبـوا بالسـياط ظهورهـم، نزعـوا ثيـاب النسـاء فلاحـت لمقالعهـم أثدائهـم، بـين صـراخ وعويـل تناثـرت الدمـاء، مـات البعـض صدمـة، وسـقط الآخـرون مُغشـياً عليـه، وعلـي المنصـة اسـترخي "توركيمـادا" ومسـاعديه وكأنهـم يسـتمتعون بموسـيقي هاينريـش شـوتز الجنائـزي.

"عشـرون عامـاً يـا "قُرشـي" عشـتها خلـف الإمـام "توركيمـادا" تبعتـه كالأعمـى والأصـم.. وهـا أنـا أفـوز بمـا وعـده لـي".. انشـقت السـماء السـوداء فجـأة عـن سـيف نـاري ضخـم، هـوي علـي رأس "برنـارد كازاس" ليشـقه نصفـين مـن قمـة رأسـه إلـي مـا بـين سـاقيه، صـراخ "كازاس" الهـادرة أيقظـت "حذيفـة" مـن شـروده، أعـادت إليـه صوابـه، ألهـذا المسـيحي إمامـاً يطالبـه بالذبـح باسـم الـرب، "يـا

عزيزي لكل منا إمام يدفعه نحو الجحيم دفع"، التفت "القُرشي" إلي الصوت فهاله أن رأي ذلك الكهل.

●●●

في تلك القرية الفلسطينية البعيدة، هرول الصغير خلف كرته مرحاً قبل أن تختبئ بين أغصان الزيتون، انطلق متحمساً غير عابئ بصخور التلال، لم يبالي بالثلوج التي ابتلعت أقدامه الصغيرة، أراد أن يلتقط كرته ليلحق بأهل قريته، فاليوم ليلة الميلاد، تهللت أساريره فرحا فقد وجد كرته أسفل الغصون، فأسرع يلتقطها بيديه الصغيرتين، طلقات رصاص وصراخ نساء أفزعته، أسرع إلي التبة ليري أبشع ما يمكن لطفل أن تراه عيناه.. ميلاد نكبة أمة العرب.

بعيون باكية راقب الطفل قتلة عصابتي "شتيرن" و"إرجون"، تواري بجسده الضئيل خلف الصخور كاتماً أنفاسه، فكان بإمكانه أن يري ويسمع بوضوح ما يحدث لأهل قريته، "ادفنوا الجثث لا أريد جرحي لا أريد شاهداً واحداً علي قيد الحياة"، هكذا سمع "الأعور" يصرخ في رجاله، انطلقت أيديهم تقتل الجميع بلا توقف، بلا تمييز، الشيوخ والشباب والنساء، وحتي الأطفال حطموا رؤوسهم بالهراوات، اغتصبوا الأمهات، أخرجوا أحشائهن من بطونهن.

أربعة ساعات قضاها الصغير بين أغصان الزيتون، لم ينطق بشيء حتي لا يسمعون، أصم صوت المذبحة أذنيه، فأضحي لا يسمع سوي صوت السكون، حتي هدأت القرية وشاهد الأعور ورجالة يرحلون، لم يجرؤ علي ترك مكمنه، فقد خشي أن يروه، لم يبقي من القرية سوي نيران هنا وهناك، ورائحة شواء تزكم الأنوف، لم يكن ذلك الشواء المعتاد لليلة عيد ميلاد عام جديد، ولكنه شواء بشري.

تشجع الطفل وقرر أخيراً أن ينزل إلي القرية ليطمئن علي أمه وأبيه وأخيه الرضيع، بأقدام مرتعدة، وقلب مرتجف سمع دقاته، تقدم من القرية، رويداً، رويداً، كانت تقترب، وصورة المجزرة تتسع، ما هذا الذي يراه، لقد أطلقوا النار علي طفل يرضع من صدر أمه فاخترقت الرصاصة رأسه وصدر أمه فقتلتهما والطفل يلثم الثدي، وبقايا الحليب تسيل على جانبي فمه، لقد جردوا النساء من ملابسهن، هشموا رؤوس جميع الأطفال، حتي رأس أخيه رآه يتدلى علي عتبات منزله.

"أنت هناك".. انتفض الصغير فزعاً، فأمامه أحد رجال الأعور، يصوب إليه سلاحاً، لم يتحرك من مكانه، لم تزرف عيناه الدمع، ترك العنان لأوصاله لترتعد، أطرافه لترتجف، شفتاه لترتعش، اقترب منه الرجل قائلاً بصوت وحش يستعد لافتراس

ضحيته وهو يشير بمسدسه، أتخشى هذا يا صغيري، اطمئن لم تعد به قيمه، ليشهد إني أنفذ وصية الإله، "إسحاق بن عاموس" ينحر الصغير كما أوصي الإمام.

"كما سمعت يا "قُرشي" فنحن أيضاً نتبع الإمام".. زلزلت أرض جهنم من تحت أقدامهم زلزالها، وأخرجت أثقال الجحيم من جوفها، انقضت علي "بن عاموس"، فانتزعت عظامه من جوفه انتزاعاً، انتفض "القُرشي" صارخاً، لم نتبع سوي شيطاناً، فأتاه صوتاً هادراً، ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، فجحظت عيناه رعباً، لقد وجد نفسه في حضره شيطانه.

●●●

يا رب خلص "هوشعنا" أمين